المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

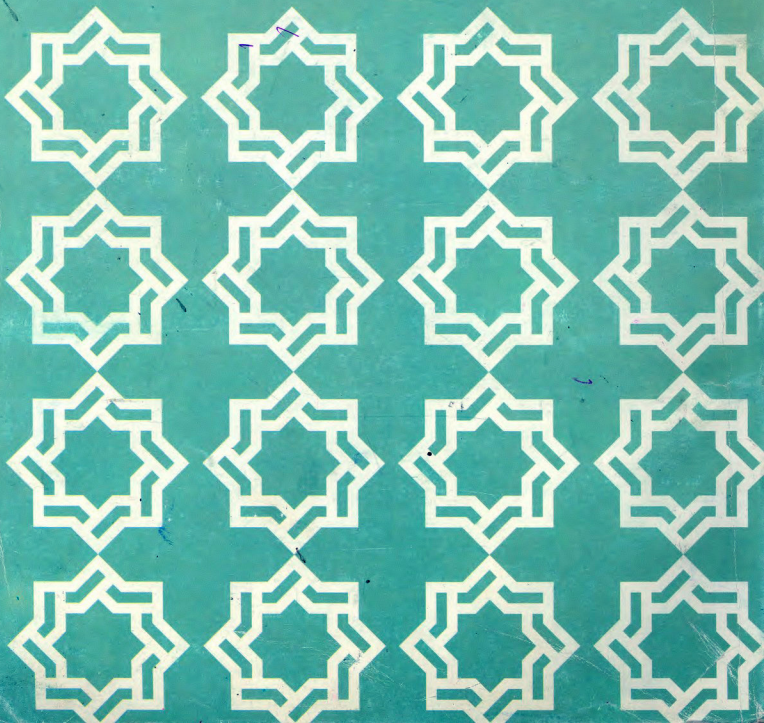

العلاقات الاسلامية ـ اليهودية في عهد الرسول [ص]

بقلم

الدكتور عمادالدين خليل

جامعة الموصل ـ كلية الاداب ـ قسم التاريخ

(١)

كما هو الحال بشأن النصارى ، فان العلاقات بين المسلمين واليهود ترجع في بداياتها الاولى الى السنين التي شهدت طفولة محمد (ص) ، بما تضمنته كتب اليهود ومصادرهم الدينية من تأكيد على النبوة الجديدة والاخيرة في تاريخ النبوات ، وان لم تصرح جميعا ماذا سيكون هذا النبي : يهوديا أم غير يهودي ؟

عن زيد بن اسلم قال : بلغنا ان عبدالله بن سلام كان يقول ان صفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في التوراة (يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين ، انت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخب بالاسواق ، ولا يجزي السيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن اقبضه حتى اقيم به الملة المتعوجة بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا) . فبلغ ذلك كعب الاحبار فقال : صدق عبدالله بن سلام ، الا انها بلسانهم (اعينا عموميين واذانا صموميين وقلوبا غلوفيين) (١) . وفي البلاذري عن عبدالله بن سلام ان اباه كان يردد : ان كان النبي القادم الذي يجدون صفاته في كتبهم من ولد هارون اتبعته والا فلا !! (٢)

ونقرا في التوراة ، سفر حجي ، الاصحاح الثاني « ٦ لانه هكذا قال رب الجنود هي مرة بعد قليل فازلزل السماوات والارض والبحر واليابسة ٧ وازلزل كل الامم ، وياتي مشتهى كل الامم فاملا هذا البيت عدلا ، قال رب الجنود » . وقد جاء في حاشية الاصل العبري « مشتهى كل الامم حمدوت ، اي الذي تحمده كل الامم » . فالتوراة اذن صرحت باسم محمد (حمدوت) ولكن الترجمة ابعدت لفظة محمد لتضع مكانه مرادفا يصرف الذهن عن الاسم الحقيقي هو (مشتهى كل الامم) . وفي سفر التثنية ، الاصحاح ١٨ ، فقرة ١٥ نقرا « يقيم لك ـ لموسى ـ الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلك له تسمعون » ويقول في الفقرة ١٨ « اقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما اوصيه به » ، وهي عبارة مجملة فسرها اليهود بمجيء رسول منهم ، لا من ولد اسماعيل ، وكان الله تعالى جعل هذه العبارة مجملة والهمهم هذا التفسير ، حفظا لهذه البشارة ، لانهم لو عرفوا ان الرسول المبشر به سيكون من ولد اسماعيل لاخفوها او محوها. وقد اثبتت الايام ان الرسول المبشر به هو محمد (ص) . (٣)

وورد في سفر التثنية ـ ايضا ـ ٣٣-٢ « جاء الرب من سيناء ، واشرق لهم من سعير ، وتلالا في جبل فاران » وتلك هي الرسالات الثلاث لموسى وللمسيح ولمحمد (ع) وهذامرصدا من قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الامين) لان منبت التين والزيتون مهجر ابراهيم ومولد عيسى (ع) ، وطور سينا مكان مناجاة الله تعالى لموسى ، وفاران في مكة مولد الرسول (ص) (٤) .

هذا فضلا عن الروايات التاريخية العديدة التي تحمل ارهاصات مجيء الرسول الجديد وصفاته .. فعن عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا « انما دعانا الى الاسلام ما كنا نسمع من يهود انه قد تقارب زمان نبي يبعث فيقتلكم قتل عاد وارم » . وعن سلمة بن سلامه الذي شهد بدرا قال : كان لنا جار من يهود بني عبد الاشهل ، اشار بيده الى مكة واليمن وقال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، قالوا : من يراه ؟ فنظر الي وانا من احدثهم سنا فقال : ان يستكمل هذا الغلام عمره يدركه . قال سلامة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمدا !! وهذا ابن الهيبان من يهود الشام خرج من الشام الى الحجاز ، وحل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة بسنتين ، ولما شعر انه ميت لا محالة قال : يامعشر يهود ما ترون اخرجني من (الشام) الى اهل البؤس والجوع (الحجاز) ؟ قالوا انت اعلم ، قال : انما قدمت هذه الارض اتوكف ـ اتوقع ـ خروج نبي قد اظل زمانه ، وهذه ارض مهاجره ، وكنت ارجو ان يبعث فاتبعه (٥) .

---

(١) ابن سعد : طبقات ٨٧/٢/١ وانظر المصدر نفسه ص ٨٨-٨٩ للاطلاع على مزيد من الروايات بهذا الصدد .

(٢) انساب الاشراف ٢٦٦/١ وانظر المصدر نفسه ص٢٨٦ .

(٣) ابراهيم خليل احمد : محمد بين التوراة والانجيل والقرآن ، المقدمات ص ٢٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٦-٢٧ ، وانظر عن بشارات التوراة الاخرى بالتفصيل : نفس المصدر ص ٣٣-٤٣ وسفر اشعيا ، الاصحاح ٤٢ ، فقرة او ما بعدها وسفر التثنية ١٥/١٨ و ١٨/١٨ وعن آثار محمد واصحابه انظر : سفر المزامير ٢٢/١١/١-٢٣ وسفر دانيال ٣١/٢-٤٥ .

(٥) انظر : محمد رواس قلعجي : محمد في الكتب المقدسة ، مجلة حضارة الاسلام عدد ١-٢ سنة ٨ وانظر ابن كثير :

من اجل ذلك راح اليهود يعلنون ، بين الحين والحين ، عن قرب ظهور النبي الاخير ، ويتباهون بذلك ، ويهددون بالانتماء اليه ، ويتوعدون مخالفيهم ، من اجل مزيد من السيطرة والاذلال واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الالاف من العرب المحيطين بهم كجزيرة منقطعة (٦) . ولم يكن الكثيرون من احبار اليهود يتوقعون ان النبي الجديد سيجيء هذه المرة من سلالة اخرى غير السلالة اليهودية المعروفة وانه بانتمائه العربي سيشكل خطرا ماحقا على وجودهم المستغل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم واسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم .

وما ان حان الوعد ، وحل الاجل المضروب في التوراة والانجيل ، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم ، وولد محمد (ص) يحمل علامات نبوته المادية والادبية ، حتى بدا اليهود يتخوفون من ان تخطىء ظنونهم ، وان لا تكون النبوة فيهم فيصابوا بخسارتين .. واصبح الطفل الذي سيبعث الى العالم في خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التي تتيح لهم اتخاذ اي اسلوب ، مهما كان دنيئا ، لوقف كل ما يتهدد مصالحهم ووجودهم ، حتى لو كان هذا الاسلوب القتل والغيلة. وهذا هو الذي يفسر لنا تحذير الراهب النصراني بحيرا لابي طالب : « ارجع بابن اخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن راوه وعرفوا منه ما عرفت ، ليبغنه شرا ، فانه كائن لابن اخيك هذا شان عظيم » (٧) .

(٢)

وبعث الرسول (ص) بعد اربعين سنة من ميلاده ، وخاض بدعوته ، في مرحلتيها السرية والعلنية ، جهادا قاسيا ضد الوثنية التي استخدمت كل اسلوب لوقف نشاطه وواد حركته ورغم قلة الروايات ، وانعدامها احيانا ، فاننا نستطيع ان نجزم ان اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي الذي دام ثلاث عشر عاما وراء قريش يتبادلون معها الوفود ويتصلون بها سرا من اجل أن يشددوا قبضتهم على النبي العربي ، وان يشلوا حركته قبل أن يشتد ساعدها وتغدو قادرة على اكتساح كل ما يقف في طريقها ، ليصدها عن هدفها المحتوم ، وثنيا كان أم يهوديا .

يذكر اسرائيل ولفنسون(٨) ان المراجع العربية لم تشر الى حركات يهود يثرب ونياتهم ازاء بيعة العقبة الكبرى ، كان الدعوة الاسلامية لم تصل اليهم وكانهم لم يقفوا على شيء من اعمال البطون اليثربية العربية . ونحن نرجح ان اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لانها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول . ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعا . ثم نعلم ان الاسلام لم ينشر خفية في يثرب ، وكيف ان مصعب بن عمير كان يدعو الناس الى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون .. ثم اننا نعلم ان عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج . فمن البعيد اذن ان يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار .. وكانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء ، لذلك نفرض انه اذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط اعمال المسلمين في المدينة ، وكذلك كان ، فان الذي يتامل ما جرى من كعب بن الاشرف زعيم بني النضير وبين الرسول يرى ان ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصلت أرض يثرب ، والعداء الذي استفحل امره بين الجبهتين يؤيد ما نقول .

الا ان محاولات الوثنية وحليفتها اليهودية اخفقت واعقب كفاح الرسول (ص) الدائم وثبات اصحابه وصمودهم انتصارا عظيما تمخض عن الهجرة الى يثرب وانشاء دولة الاسلام فيها . ولم يكن يهود يثرب بقادرين ـ أول الامر ـ على اعلان مجابهتهم المكشوفة للدولة الناشئة ، واتباعها من عرب المدينة يزدادون كثرة يوما بعد يوم .. ولم يكن من مصلحتهم ايضا ان يتولوا بانفسهم كبر مقاومة الاسلام ، وقريش لا تزال على قوتها وقدرتها على الضرب . فلتلقى تبعة الصراع اذن على قريش ، وليظل اليهود في المواقع الخلفية يشاهدون الصراع ويخططون على ضوء نتائجه المتوقعه حتى اذا ما وجدوا ثغرة لضرب الاسلام تسللوا منها لتسديد طعنة اليه ، او لمسوا ضعفا وانهاكا انقضوا يضربون ويطعنون .. وهكذا وافقت معظم القبائل اليهودية على الدستور الذي طرحه الرسول (ص) لتنظيم الامور السياسية والمدنية في يثرب ، ودخلوا اطرافا فيه كي يتيحوا لانفسهم فترة من الوقت يستردون فيها انفاسهم ازاء السرعة التي كانت الاحداث تتحرك بها . ورغم ان هذا الميثاق كان ينص ـ فيما ينص عليه ـ اسهام اليهود مع المسلمين في صد اي عدوان قرشي يقع على المدينة ، وتغطية النفقات المالية للقتال ، فان اليهود لم ينفذوا هذا البند لا ماليا ولا عسكريا .. ولم يشا الرسول (ص) ان يلح عليهم لتنفيذه ما دامت ستراتيجية في الصراع تقوم على عدم ضرورة فتح اكثر من جبهة ، والدولة الاسلامية لم يشتد ساعدها بعد . المهم ان يجمد اليهود نشاطهم ضد الاسلام كي يتفرغ الرسول (ص) للمجابهة الحاسمة مع قريش وهذا ما يفسر لنا جواب الرسول (ص) للانصار يوم احد عندما سالوه : يا رسول الله الا نستعين بحلفائنا اليهود ؟ فكان جوابه : لا حاجة لنا فيهم(٩).

كان الغرض الذي يرمي اليه الرسول (ص) من وراء (الصحيفة) وما اليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب هو هدم النظام القديم وايجاد نظام جديد يمكن ان تتوحد به العناصر اليثربية وان تعود يثرب ، بعد فرقة احيائها ، مدينة واحدة . فقد كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة الى بطن من البطون ، وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين ، يشتمل القسم الاول منها على الاراضي الزراعية بمنازلها وسكانها .. ويشتمل ثانيها على (الاطام) ـ أي الحصون التي كانت ملكا خاصا بالاسر العريقه . وكان رئيس الاسرة صاحب السلطان في الاطم ، كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون(١٠) .

البداية والنهاية ٢/٣٠٨ـ٣١٠ وابن هشام ص ٤٢ والطبري : تاريخ ٢/٢٩٥ـ٩٧ وانظر كذلك رواية حسان بن ثابت في ابن هشام ص ٢٨ .

(٦) انظر : الطبري : تاريخ ٢/٣٥٤ .

(٧) ابن هشام ص ٣٦ .

(٨) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٠٦ ـ ١٠٨ .

(٩) ابن هشام ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(١٠) ولفنسون ص ١١٦ ـ ١١٧ وعن الاطام انظر بالتفصيل المصدر نفسه ص ١١٦ ـ ١١٨ .

ويلاحظ أن الصحيفة قد ذكرت اليهود الموالين للبطون العربية واهملت ذكر القبائل الاخرى من اليهود وذلك يتفق تماما مع ما كانت عليه الحالة السياسية في يثرب ، فان البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت في احلاف مع الاوس او مع الخزرج ، وذلك بعد سيادة هؤلاء في يثرب . أما قبائل اليهود الكبرى الثلاثة(١١) فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ثم أنها ناوأت الاسلام واظهرت عداءها . ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندا عاما لدخول اليهود في الدولة احتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل في النظام الجديد . وفعلا الحقت هذه القبائل بالدولة في محالفات ملحقة(١٢) . وقد اشار المؤرخون الى هذه المحالفات وان لم يذكروا نصها ، ويبدو ان نصوصها لم تكن تختلف عن الجوهر العام لنص الصحيفة ، والارجح ان هذه القبائل اليهودية لم تعاهد النبي في وقت واحد، فقد ذكرت المصادر ان بني قينقاع ، حين اجلاهم النبي (ص) بعد بدر كانوا هم أول من نقض العهد . ولعل المعاهدات التي وقعها النبي (ص) مع هذه القبائل لم تكن تشترط عليها ان تشارك معه في القتال ، وهذا امر طبيعي بعد أن فسدت الامور بين المسلمين واليهود ، فلم يكن النبي يثق باليهود حتى يشترط عليهم ان يشاركوا معه في الحرب ، والدليل على ذلك ان اليهود لم يشاركوا فعلا في حروب النبي ، وان النبي رفض الاستعانة بهم يوم احد كما راينا . ونحن لا نوافق على ما ذهب اليه ولفنسون(١٣) وغيره من ان النبي قد غضب على بني النضير لعدم اشتراكهم معه في موقعة احد ، لان بني النضير كانت قد بدات منهم الخيانة ومعالاة العدو قبل احد ، كما حدث في غزوة السويق ، فلم يكن النبي يقبل والحالة هذه ان يشاركوا في جيشه حتى لا يتعرض لخيانتهم في ميدان القتال(١٤) .

وفي اعقاب الهجرة ، ولفترة من الوقت ، سارت العلاقات بين الرسول (ص) واليهود سيرا حسنا ، وكان الرسول (ص) يطمع من جهته ان يتفهم اليهود دوافع حركته الدينية واهدافها والعوامل المشتركة التي تربط الاديان السابقة ، بما فيها اليهودية ، بالاسلام ، سيما وانهم يرون بام اعينهم في صفحات كتبهم تلك التاكيدات المستمرة على نبوة محمد (ص) . وقد ادى المصدر الواحد لكلا الدينين الى ان تمارس بعض الطقوس والشعائر الاسلامية وفق بعض (الاشكال) التي يمارسها اليهود . وهذا أثر منطقي بطبيعة الحال بالنسبة للدعوة الجديدة التي جاءت لتعلن اكثر من مرة انها ليست سوى امتداد على نفس الطريق للدعوة الدينية الكبرى التي بداها ابراهيم (ع) ، ونادى بها فيما بعد موسى وعيسى (ع) . ومن هنا يتبدى الخطأ الساذج الذي وقع فيه عدد كبير من الكتاب والمستشرقين ، نذكر منهم على سبيل المثال بروكلمان الذي يقول « تاثرت اتجاهات النبي الدينية في الايام الاولى من مقامه في المدينة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود . واغلب الظن انه كان يرجو عقب وصوله الى المدينة أن يدخل اليهود في دينه ، وهكذا حاول ان يكسبهم عن طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي »(١٥) .

(١١) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر المحاضرة الثالثة من كتاب : مارغليوث : العلاقات بين العرب واليهود .

(١٢) أحمد ابراهيم الشريف : مكه والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص) ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

(١٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢١ ، ١٣٥ .

(١٤) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ – ٤٨٥ .

(١٥) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٧ .

وقد امل اليهود ، في مطلع العهد المدني ، وقد رأوا هذا التعاطف الاسلامي ازاءهم ، دون ان يفهموا اسبابه العميقة ، ان الرسول (ص) ربما يقر بارجحية العقيدة التي يؤمنون بها ، وانه سيتركهم وشانهم مكتفيا بتشكيل وحدة يثربيه تضم الطرفين وتحمي مصالحهما المشتركة بوجه العرب المشركين في الداخل والخارج ، بل انهم ذهبوا الى ابعد من ذلك وظنوا انهم ربما تمكنوا يوما من استمالة الرسول (ص) اليهم وادخاله وصحبه في دينهم !! الا ان ظنهم سرعان ما خاب عندما ادركوا ان محمدا (ص) ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد كل اسلوب لتحقيق اهدافه ، وانما هو صاحب رسالة عظمى ازاء العالم كله .. رسالة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الاقليمية ليثرب ، او حتى لجزيرة العرب كلها ، باتجاه الانسان في كل مكان ، وازداد الامر وضوحا عندما توالت دعوات الرسول (ص) وتاكيداته على ضرورة دخولهم الدين الجديد ، ان ارادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي حملها موسى الى بني اسرائيل ، وعندما راحت ايات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم وكتبهم من تزييف وتحريف من أجل ان يحموا مصالحهم ويضيفوا الى اموالهم اموالا . اضف الى ذلك ما كان يلقاه الاسلام من انتشار متزايد في يثرب واطرافها ، الامر الذي كان يعني عزل اليهود والحد من نشاطهم الديني والاقتصادي على السواء ، فضلا عن الوحدة العميقة التي انشاها الاسلام بين الاوس والخزرج وسد بها الطريق على اليهود واستغلالهم الفاجر للصراع الدامي بين الجانبين .

وبدا يتضح لليهود ، يوما بعد يوم ، المصدر الاساسي للخطر الذي تشكله الدعوة الجديدة بمواجهة اليهودية .. ان النبي يدعو الى (توحيد) غير الذي يؤمن به اليهود ، على اساس قومي استعلائي مغلق ، من ان الله الواحد هو اله اسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس ، وبذلك كانوا يرون لانفسهم ميزة على الناس . وكانت امنيتهم يوما هي ان يجدوا من ياتي بما يهوون من سيطرة ونفوذ ، لا بما تتطلبه الدعوة من اصلاح وخير يعم الناس جميعا . ومن اجل ذلك كذبوا انبياءهم وحاربوا المسيح (ع) وسعوا الى قتله . فاذا ما جاء محمد فدعا الى هذا الاله الواحد للناس جميعا ، بغض النظر عن اجناسهم ، فانه بذلك يزيل عن بني اسرائيل هذه الميزة التي يستفتحون بها على الاخرين ، واذن فلا تهاون بينهم وبين محمد الذي يسعى الى تحطيم تلك القواعد المقررة التي سار عليها اليهود . فقامت بينهم وبين النبي (ص) محاجات ومجادلات ما لبثت ان اتخذت من جانبهم موقف التحدي والمعاندة ، بل انهم اندفعوا في عدائهم فتورطوا في تفضيل الاصنام على التوحيد(١٦) .

ورغم ان ولفنسون اكد على خطورة مبدأ (التوحيد) الاسلامي وعالميته ازاء « العقلية اليهودية التي لا تلين امام شيء يزحزحها عن دينها ، وتأبى ان تعترف بان يوجد نبي من غير بني اسرائيل » ، الا انه يقع في خطأ القول بان الرسول (ص) لو لم يكلف اليهود الاعتراف برسالته ، ولو وقفت تعاليمه عند حد محاربة الوثنية فحسب ، لما وقع نزاع بينهم وبين المسلمين، ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول (ص) ولايدوه وساعدوه باموالهم وانفسهم حتى يحطم الاصنام ويقضي على العقائد الوثنية .. ويمضي ولفنسون الى

(١٦) الشريف : مكة والمدينة ص ٤١٢ – ٤١٥ .

القول بأن هذه (المسألة) يجب الا تغرب عن الاذهان لانها اساس كل ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع، ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف ، أو لكان في الامكان ان يتلافى ما قد ينشأ من ذلك . ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين انهم اهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول (ص) واليهود ، مع أنه مما لا شك فيه انه اذا اهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع(١٧) .

وفاتت ولفنسون حقيقة على درجة كبيرة من الاهمية تلك هي أن طبيعة الدعوة الاسلامية المنفتحة على العالم ، وانتماء نبيها الى العرب ، وقيام دولتها في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود ونشاطاتهم المختلفة .. يشكل بحد ذاته خطرا كبيرا على اليهود في دينهم ودنياهم على السواء ، حتى لو لم يدعوا الى الاسلام ، لان نجاح الاسلام كفيل بحد ذاته بحصر اليهود وعزلهم وكشفهم امام العالم ، ومن ثم ضرب وجودهم ومصالحهم في الصميم ، الامر الذي دفعهم بعد وقت قصير من ادراكهم ابعاد هذا الخطر الى ان يقفوا الى جانب الوثنية ويمتدحوا اصنامها بمواجهة التوحيد الذي جاء به الاسلام !! ومن ثم فان ولفنسون يناقض نفسه عندما يشير الى انطلاق العقلية اليهودية من جهة ، وسكوتها ، بل تعاونها - لو لم تدع الى الاسلام - مع هذا الدين الذي جاء لكي (يفضح) المزاعم الدينية التحريفيه التي مارسها اليهود طويلا ، ولكي ينفتح على الانسان والعالم ويقضي في طريقه على اسطورة (شعب الله المختار) وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مكاسب لا يحصيها عد !!(١٨)

هذه هي في الحقيقة (النقطة الجوهرية) في البحث عن أسباب الخلاف بين الرسول (ص) واليهود والتي اذا ما اهملت - دون غيرها - فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع !! وسيؤكد سياق الاحداث هذا الذي نذهب اليه .

ومن هذا الخطأ يجد ولفنسون ، وعدد من المستشرقين ، انفسهم مسوقين الى خطأ اخر ، وهو انه ما دام القتال قد نشب بين المسلمين واليهود في اعقاب بدر فان معنى هذا ان اليهود كان عليهم ان يندمجوا في الدين الجديد أو ان يجابهوا (بحرب دموية) حتى يفنوا او يجلوا الى مكان بعيد .. وانه ما دام قد وقع قتال بين الطرفين فان معنى هذا « ان المهاجرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لان حالتهم كانت سيئة جدا ، اذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل ، بل كانوا يسكنون مع الانصار من الاوس والخزرج »(١٩) . وفات هؤلاء المؤرخين ان طبيعة التعارض العقائدي بين الدينين اللذين يقوم أحدهما على (الانفتاح الكامل) والاخر على (الانطلاق الكامل) كان لا بد وان يؤول الى صراع حاسم من اجل انفراد احدهما بالكلمة العليا ، حتى لو كان المهاجرون يسكنون القصور الفخمة ويأكلون احسن الطعام !! وهل بالامكان - فوق هذا كله - ان يتناسى المؤرخ الجاد ان الرسول (ص) لم يكن يشن حربا الا ضد الفئة اليهودية التي تبدأ بالعدوان ، أو ان يتجاهل مغزى اصدار الدستور الذي منح اليهود حريتهم الدينية والمدنية الكاملتين دون قيد زمني مشروط ؟!

(٣)

بدأ النزاع بين النبي (ص) واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين ، فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله (ص) ويصلون فيها الى حد التعنت . فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ، وكانوا يطالبون النبي (ص) بان يأتي اليهم بالمعجزات .. ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلاميه ، فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب ، كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون)(٢٠) . ثم ظهرت العداوة فاخذ النبي (ص) يطعن في يهود يثرب ، واخذ اليهود يرمون الانصار بقوارص الكلم .. وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والانصار في الشوارع .. ولم يمض ثمانية عشر شهرا على قدوم البني (ص) الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحذر والنفور من الفريق الاخر(٢١) .

وزاد الامر توترا انضمام المنافقين الى اليهود في حربهم النفسية مع المسلمين . ولقد جاء في الايات الاولى من سورة البقرة ، التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول ،بصدد الحديث عن المنافقين (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : امنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزئون) . فقد قال جمهور المفسرين ان شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين اغروا المنافقين بالنفاق او شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى ان النبي (ص) والمسلمين لم يغب عنهم ذلك(٢٢) .

وبلغ الجدل بين محمد (ص) واليهود مبلغا من الشدة يشهد به ما نزل من القرآن فيه ، فقد نزل احدى وثمانون آية من سورة البقرة ، وقسم كبير من سورة النساء ، وكله يذكر هؤلاء اليهود وانكارهم لما في كتابهم ويلعنهم لكفرهم وانكارهم اشد اللعنة(٢٣) . ولم يكتف اليهود بالوقيعة بين المهاجرين والانصار ، وبين الاوس والخزرج ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة ردهم الى الشرك ، دون تهويدهم وصدهم من يريد الاسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة محمد (ص) - كما رأينا - بالقاء اسئلة محرجة عليه - مستعينين بما عندهم من علم الكتاب - كان القرآن يتصدى لدحضها ، او الاجابة عليها ، أو فضح نواياها(٢٤) .

وحين ضاق اليهود ذرعا بمحمد فكروا في ان يقنعوه بالجلاء

---

(١٧) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١٨) ان المكانة الدينية - العلمية التي كان اليهود يتمتعون بها ، جعلتهم - كما يقول دروزة - في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي ، لسكان يثرب ، على ما تلهمه ايات قرآنية عدة (انظر كتاب عصر النبي وبيئته للمؤلف المذكور) . فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة والقوة النافذة والاثر في حل المشكلات وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز . وقد ارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة (سيرة الرسول ١٢٢/٢ - ١٢٣) .

(١٩) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢٠) البقرة ١٠١ .

(٢١) تاريخ اليهود ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٢٢) دروزة : سيرة الرسول ١٢١/٢ .

(٢٣) انظر سورة البقرة ٨٧ - ٨٩ ، تفسير الطبري ٣٢٣/٢ .

(٢٤) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٧٤ - ٤٧٩ .

عن المدينة ، كما اجلته قريش عن مكة ، فذكروا له ان من سبقه من الرسل ذهبوا الى بيت المقدس وكان مقامهم به .. لكن محمدا ادرك ما يرمون اليه ، واوحى الله اليه على راس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة ان يجعل قبلته المسجد الحرام ، بيت ابراهيم واسماعيل(٢٥) فانكر اليهود ذلك وادركوا مدى خطورته ، اذ انه بادرة لتوحيد العرب وتجميعهم حول الدين الجديد ، وفرض مزيد من العزلة على اليهود ، لذلك ادركوا هذا وحاولوا فتنة النبي مرة اخرى بقولهم : انهم يتبعونه ان هو رجع الى قبلته الاولى(٢٦) . ويوما بعد يوم اشتد النفور بين الطرفين ، وكثرت بينهم المخاصمات ، وبدت الكراهية والبغضاء ، حتى نزل القرآن ينهى عن الاختلاط باليهود واتخاذ بطانة للمسلمين منهم (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا ياتونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صورهم اكبر . قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون . ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا : امنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الا نامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم)(٢٧) .

ورغم هذه المواقف العدائية العامة التي صدرت عن الاكثرية الساحقة من اليهود ، فاننا نجد ثمة آيات تضمنت استثناء لبعضهم ، وتنويها بسلامة مواقفهم واعتدالهم . ومنها ما تضمن اشارة الى ايمانهم واخلاصهم ، مما يدل ـ من جهة ـ على ان فئة من اليهود ـ وفيها فريق من العلماء ـ قد استطاعوا ان يفلتوا من المؤثرات العنصرية والاقتصادية والنفسية والانانية التي خضع لها اليهود ، فلم يسعهم الا ان يصدقوا بالنبي ويؤمنوا بالتنزيل .. ومن جهة اخرى على ان الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لا اكراه فيها ، من بعض اليهود في العهد المدني بل عن اقبال قد يؤدي الى اذى المقبلين كما كان في العهد المكي .. وعلى ان مواقف الكيد والتآمر وهذا وذاك يدعم ما قلناه من انه لم تكن هناك اية فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين(٢٨) . ولقد قامت علاقة طيبة بين المهاجرين وبعض اليهود حتى ليغشون مجالسهم ويذهبون الى بيوت مدارسهم ، يتحدثون اليهم ويسالونهم ، ويسمعون منهم ، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة(٢٩) . ولن ننسى هنا اسلام الحبر اليهودي المعروف (عبدالله بن سلام القينقاعي) واهل بيته (٣٠) ، ومجابهته اليهود باسلامه ودعوته اياهم الى الدين الجديد(٣١) .

(٢٥) البقرة ١٤٤ .
(٢٦) البقرة ١٤٢ ـ ١٤٣ .
(٢٧) آل عمران ١١٨ ـ ١١٩ ، الشريف : مكة والمدينة ٤٧٩ ـ ٤٨٣ . وانظر بالتفصيل عن مواقف اليهود ازاء الدعوة ، ومجادلاتهم وحربهم النفسية والفكرية : دروزة : سيرة الرسول ١٣٠/٢ ـ ١٦٥ . وعن دسائسهم وتآمرهم مع المنافقين والمشركين ضد المسلمين انظر : المصدر نفسه ١٦٦/٢ ـ ١٨٦ .
(٢٨) دروزة : سيرة الرسول ٢٠٧/٢ـ٢٠٨ وانظر آيات : البقرة ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٠ ، ٨٣ وآل عمران ١١٣ـ١١٥ ، ١٩٩ والنساء ١٦٢ .
(٢٩) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٧٤ عن تفسير الطبري ٣٨١/٢ـ٣٨٤ .
(٣٠) ابن الاثير : اسد الغابة ١٧٦/٣ .
(٣١) الشريف : مكة (المدينة ص ٤٧٤ فما بعد وانظر السمهودي : وفاء الوفا ١٩٤/١ـ١٩٥ .

وبدا الصراع المرير بين الاسلام وبين الوثنية العربية بقيادة قريش : حروب عصابات وحصارا اقتصاديا اول الامر ، ومجابهات عسكرية نظامية حاسمة بعد ذلك .. وبدا يتضح لليهود ـ بعد الانتصار الذي حققه المسلمون في بدر ـ ان بقاءهم ساكتين ازاء ما يجري من صراع سيمكن الرسول (ص) من تصفية اعدائه وتعزيز مركز الدولة الاسلامية في الجزيرة ، وسيجد اليهود انفسهم انذاك منفردين بمواجهة الاسلام ، مرغمين على قبول سلطته السياسية بشكل نهائي ، وهذا ما لا يمكن ان يتصوروه ، لانه يمثل خطرا على مصالحهم وانطلاقهم وتفردهم التاريخي الطويل بالسلطان . ومن ثم بداوا يتحركون باتجاهات شتى لعرقلة الحركة الاسلامية ، ووضع المصاعب في طريقها ، وسمعتها في نهاية المكان ، ضاربين عرض الحائط بكل التزاماتهم تجاه الاسلام ، في الدستور الذي وقعوه مع الرسول (ص) . ولم يدع اليهود في تحركاتهم المفسادة تلك ، اسلوبا الا اتبعوه : تصعيدا للحرب النفسية والمطاردات الجدلية (٣٢) ، فتنة اجتماعية ، اغتيالا فرديا ، تحركا عسكريا ، خيانة في الاوقات الحرجة ، وتاليبا للقوى المعادية للاسلام وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة . الا ان من سوء حظ اليهود انهم لم يتحركوا مجتمعين ويقفوا صفا واحدا بمواجهة الاسلام ، الامر الذي مكن الرسول (ص) من التصدي لكل منهم على انفراد ، وتصفيته واحدا بعد اخر . وربما فكر اليهود في هذا التحرك الجماعي المشترك ، لولا خوفهم العاقبة حيث سيؤدي ذلك الى كشفهم نهائيا ، وهم لم يعتادوا العمل المكشوف ، ومن ثم اثروا الاسلوب الاخر ، وهو ان يختار كل قبيل منهم الفرصة المناسبة لضرب الاسلام واضعاف دولته .

(٤)

كان اول صدام مبكر بين الاسلام واليهود هو ذلك الذي حدث في اعقاب معركة بدر .. بدا اليهود الذي صدمتهم نتيجة المعركة التي لم يكونوا يتوقعوها ، يروجون الشائعات ضد المسلمين ويشنون حربا نفسية ضد رسوله ودعاته ، ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم الى قريش (٣٣) ، كما انهم كانوا قد تلقوا رسالة من قريش تحرضهم فيها على قتال الرسول (ص) (٣٤) ، واظهروا للرسول ، كما يقول الطبري الحسد والبغي ، وقالوا : لم يلق محمد من يحسن القتال ، ولو لقينا ، لاقى عندنا قتالا لا يشبهه قتال احد ، واظهروا نقض العهد (٣٥) . فجمعهم الرسول (ص) في سوق بني قينقاع وقال لهم : يامعشر اليهود ، احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا ، فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، وفي عهد الله اليكم . قالوا : يامحمد ، انك ترى انا كقومك لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فاصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربنا لتعلمن انا نحن الناس (٣٦) .

(٣٢) انظر الطبري ٤٠١/٢ ، ٤١٢ ، الواقدي ١٨٤/١ـ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٤١٣ ، البلاذري : انساب ٢٨٤/١ـ٢٨٥ .
(٣٣) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٩٢ .
(٣٤) محمد حميد الله : الوثائق ص ٤٨ .
(٣٥) الطبري : تاريخ ٤٧٩/٢ البلاذري : انساب ٣٠٨/١ الواقدي ١٧٦/١ .
(٣٦) المصادر السابقة ، نفس الصفحات .

وازداد الموقف توترا في أعقاب الحادثة التي شهدها سوق بني قينقاع ، حيث كانت امراة عربية قد قدمت السوق ببضاعة تريد بيعها هناك ، وجلست الى صائغ في السوق ، فتقدم اليها عدد من اليهود ، وطلبوا منها ان تكشف عن وجهها فابت ، فعمد الصائغ الى التحرش بها ، مما اضحك اليهود المتجمعين حولها ، فصاحت المراة ، فما وسع رجل من المسلمين الا ان وثب على الصائغ اليهودي فقتله ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، واستصرخ اهل المسلم اتباعهم ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . (٣٧)

وفي رواية للزهري ، يوردها الطبري ، ان جبريل نزل على الرسول (ص) بهذه الاية (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) (٣٨) .فلما فرغ جبريل من تلاوة الاية قال الرسول (ص) : اني اخاف بني قينقاع ، وسار لقتالهم (٣٩) . ومهما كان الامر فان يهود بني قينقاع قد تحدوه صراحة سواء في اقوالهم وحربهم النفسية ، ام في مواقفهم واعمالهم ، حتى ان الواقدي يذكر ان بني قينقاع اجتمعوا على الرجل فقتلوه « ونبذوا العهد الى النبي (ص) وحاربوا وتحصنوا في حصنهم »(٤٠) . ومن ثم يبدو تهافت ما ذكره ولفنسون من ان الاسباب التي حملت النبي على البدء بمحاربة بني قينقاع ـ من بين جميع اليهود ـ ترجع الى ان بني قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة ، في حي واحد من احياء الاقوام العربية ، فاراد النبي (ص) ان يطهر المدينة واحياء الانصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه. وغني عن البيان ان بني قينقاع كانوا اغنى طوائف اليهود في يثرب .. ثم كان عددهم غير كثير ، فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شافتهم (٤١) .

لم يقف الرسول (ص) ساكتا ازاء تحدي بني قينقاع ، وهم ينقضون صراحة بنود الدستور ويثيرون فتنة كان الدستور قد اكد على معاقبة مرتكبيها واعتبارهم ناقضين للعهد ، ومن ثم فرض الحصار على حصونهم الواقعة داخل المدينة ، في شوال من السنة الثانية للهجرة ، وقد استمر الحصار خمسة عشر ليلة وانتهى نزول اليهود على حكم الرسول الذى قضى باجلائهم عن يثرب الى اي مكان يشاءون (٤٢) ، دون ان ينزل اية عقوبة ـ اخرى ـ بهم ، كي يجيء حكمه بمستوى الجرم الذي اقترفوه . وبخروجهم الى (اذرعات) من بلاد الشام تخلص المسلمون من واحدة من القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث المنتشرة ومنذ زمان بعيد ـ داخل المدينة وخارجها ، فازدادت وحدة المدينة تماسكا ، وازداد اليهود ضعفا . ويظهر ان اجلاء بني قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود ، فقد امتنعوا في اعقاب ذلك من المجادلة الدينية ، وكفوا عن رمي المسلمين بقوارص الكلم ، ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تكن قد دخلت في الاسلام ، وانفسح المجال امام النبي (ص) لنشر دعوته (٤٣) .

ولم يمض على ذلك كبير وقت حتى سدد الرسول (ص) لليهود ضربة اخرى بقتله (كعب بن الاشرف) ، احد كبار زعمائهم ، في ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة . وكان كعب قد صعد نشاطه ضد الاسلام في اللحظة التي قدم فيها الى المدينة مبعوثا الرسول (ص) من معركة بدر ، زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحه لاعلان بشرى انتصار المسلمين في لقائهم الحاسم مع المشركين ، فقال كعب : ويلكم احق هذا ؟ اترون ان محمدا قتل هؤلاء الذين يسمي هذا الرجلان ، وهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير لنا من ظهرها .. هؤلاء سراة الناس قد قتلوا واسروا ، فما عندكم ؟ قالوا : عداوته ما حيينا . قال : وما انتم وقد وطيء قومه واصابهم ، ولكني اخرج الى قريش فاحضهم وابكي قتلاهم ، فلعلهم ينتدبون فاخرج معهم .. وبعد ان تيقن من صحة الخبر غادر كعب المدينة متوجها الى مكة ونزل هناك على احد زعمائها ، وراح يحرض على رسول الله (ص) وينشد الاشعار في هجائه ويبكي أصحاب القليب من قادة قريش الذين صرعوا في بدر . وقفل عائدا الى المدينة لكي ينشد قصيدة يشبب فيها بامراة مسلمة تدعى ام (الفضل بنت الحارث) :

احدى بني عامر جن الفؤاد بها
ولو تشاء شفت كعبا من السقم
لم ار شمسا بليل قبلها طلعت
حتى تجلت لنا في ليلة الظلم !!

وتحول من ام الفضل الى نساء مسلمات اخريات متشببا بهن حتى آذاهن . وعند ذاك قال الرسول (ص) لاصحابه : من لي من ابن الاشرف ؟ فقال رجل من الانصار يدعى محمد بن مسلمة : انا لك به يارسول الله ، انا اقتله . قال الرسول (ص): فافعل ان قدرت على ذلك !!

توجه محمد بن مسلمة الى دار بن الاشرف ، في بني النضير ، يصحبه اربعة من رفاقه . وعندما اقتربوا من داره بعثوا اليه احدهم : ابو نائلة ، فجاءه فتحدث معه ساعة ، وتناشدا شعرا ، ثم قال ابو نائلة ، ويحك يا ابن الاشرف : اني قد جئتك لحاجة اريد ذكرها لك فاكتم علي . اجاب كعب : افعل . قال ابو نائلة : كان قدوم هذا الرجل (يعني محمدا ص) بلاء علينا . عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الانفس واصبحنا قد جهدنا وجهدت عيالنا فقال كعب : انا ابن الاشرف ، اما والله لقد كنت اخبرتك ان الامر سيصير الى ما كنت اقول . فقال ابو نائلة : اني قد اردت ان تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك ، وتحسن في ذلك . وطلب كعب ان يرهنوه ابناءهم فاقنعه ابو نائلة ان ذلك مما لا ترضاه العرب وان من الافضل لو يجعل الرهن سلاحا ـ وكان هدفه الا ينكر كعب وجماعته السلاح اذا جاءوا به ـ فوافق كعب على ذلك . وفي بقيع الغرقد اجتمعوا بالرسول (ص) وتلقوا منه التعليمات وقال لهم : انطلقوا على اسم الله ، اللهم اعنهم . فاقبلوا حتى انتهوا الى حصن كعب ، وناداه ابو نائلة ، فنزل اليهم وتحدث معهم ساعة ،

---

(٣٧) ابن هشام ص ١٧١ الواقدي ١/١٧٦-١٧٧ ، البلاذري: انساب ٣٠٩/١ ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٥٤ السمهودي : وفاء الوفا ١٩٧/١-١٩٨ ابن الاثير : الكامل ١٣٧/٢-١٣٩ ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٤-٤ .

(٣٨) الانفال ٥٨ .

(٣٩) الطبري : تاريخ ٤٨٠/٢ ابن سعد : طبقات ١٩/١/٢ الواقدي ١٨٠/١ .

(٤٠) المغازي ١٧٧/١ .

(٤١) تاريخ اليهود ص ١٢٨ .

(٤٢) ابن هشام ص ١٧١-١٧٢ ابن سعد ١٩/١/٢-٢٠ الواقدي ١٧٧/١-١٨٠ البلاذري : انساب ٣٠٩/١ ابن الاثير : الكامل ١٣٨/٢-١٣٩ .

(٤٣) ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٣١ .

حتى اذا توغلوا بعيدا عن مساكن اليهود اخذ ابو نائلة براسه وصاح : اضربوا عدو الله ! فصرخ كعب صرخة لم يبق من جرائها حصن يهودي الا اوقدت عليه النار ، وما لبثت سيوف المسلمين ان تناوشته واجهزت عليه .. وقفلوا عائدين بعد ان اصيب احدهم بجرح . وسرعان ما تبدت ردود فعل اليهود ازاء مقتل فارسهم وشاعرهم : خوفا وجبنا « فليس في المدينة يهودي الا وهو يخاف على نفسه » (٤٤) !! ودفعهم الفزع الى مقابلة الرسول (ص) حيث قالوا له : قد طرق صاحبنا الليلة ، وهو سيد من ساداتنا ، فقتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه . فاجابهم الرسول (ص) : انه لو فر كما فر غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل ، ولكنه نال منا الاذى وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا احد منكم الا كان له السيف . ثم ما لبث ان عرض عليهم ان يكتب بينهم كتابا ينتهون الى ما فيه ، فاجابوه الى ذلك حيث اصابهم الخوف والذل (٤٥) .

(٥)

وما لبثت هزيمة احد ان افسحت لليهود مجالا ينفسون فيه عن احقادهم ويظهرون ضغائنهم على الاسلام ونبيه ، وراحوا يطلقون الاقوال السيئة ويقولون : ما محمد الا طالب ملك ، ما اصيب هكذا نبي قط ، اصيب في بدنه واصيب في اصحابه. حتى ان ذلك استفز عمر بن الخطاب (رض) فمشى الى الرسول (ص) واستاذنه في قتل الرؤوس اليهودية التي نفثت سمومها في قلب المحنة فاجابه الرسول (ص) : ياعمر ، ان الله مظهر دينه ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا اقتلهم (٤٦) . ولم يقف اليهود عند حدود الحرب النفسية بل انهم مضوا الى ابعد من ذلك مستغلين فرصة ضعف المسلمين ومأساتي الرجيع وبئر معونة ، وتألب الاعراب الوثنيين ضدهم ، فقرر زعماء بني النضير (٤٧) التآمر على حياة الرسول (ص) في السنة الرابعة للهجرة .

ذلك انه ذهب الى حصونهم ، بصحبة عدد من كبار اصحابه ، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، كان احد اصحابه قد قتلهما خطأ في اعقاب نجاته من مجزرة بئر معونة ، وفق ما تقضي به المواثيق التي كان اليهود قد وقعوها مع الرسول (ص) ما جاء من اجله ، قالوا : نعم يا ابا القاسم ، نعينك على ما احببت مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - وكان (ص) قد جلس يستريح اسفل جدار بيت من بيوتهم - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جماش بن كعب : انا لذلك ، وصعد لتنفيذ المهمة . فنزل الوحي الامين لكي يخبر الرسول (ص) بما أراد القوم ، فما لبث ان غادر المكان عائدا الى المدينة ، ولما انتظره اصحابه طويلا ، ولم يعد ، قاموا في طلبه ، وفي الطريق لقوا رجلا مقبلا من المدينة اعلمهم انه رأى النبي (ص) داخلا ولما التقوا به اخبرهم بما اعتزمه اليهود من الغدر به . وارسل الى بني النضير ينذرهم مغادرة المدينة خلال عشرة ايام وان من شوهد منهم بعد انتهاء المدة ضربت عنقه . لكن اليهود لم يستجيبوا للانذار وراحوا يهيئون انفسهم لحصار طويل ، وحينذاك اصدر الرسول (ص) اوامره بالتهيؤ للمسير الى حصون بني النضير وقتالهم .

ما ان علم بنو النضير بتحرك المسلمين حتى لجأوا الى حصونهم يجتمعون بها ، ففرض المسلمون الحصار عليهم ، وامر الرسول (ص) بقطع نخيلهم وتحريقها لارغامهم على التسليم ، وهم الحريصون على المال والمتاع، فنادوه ان يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ فلم يتلفت الرسول (ص) لمثالياتهم التي يعرف جيدا انهم اول الناس بتخطيها اذا ما تعارضت ومصالحهم ، فشدد الحصار عليهم . وراح بنو النضير يقاومون بانتظار النجدة التي وعدهم بها عبدالله بن ابي زعيم المنافقين ، دون جدوى ، وبدأ الرعب يدب في نفوسهم ، ثم ما لبثوا ان اعلنوا عن استسلامهم ، بعد خمسة عشر يوما من الحصار ، وموافقتهم على الجلاء اسوة برفاقهم من بني قينقاع ، على ان يحقن الرسول (ص) دماءهم ويسمح لهم بحمل ما تقدر ابلهم على حمله فيما عدا السلاح ، فاجابهم الى ذلك ، فحملوا ابلهم الكثير من الاموال والمتاع وانطلقوا شمالا حيث استقر بعضهم في خيبر وعلى رأسهم زعماء بني النضير : سلام بن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب حيث دان لهم اهلها بالطاعة ، واستمرت طائفة اخرى في مسيرها صوب الشام . ووضع الرسول (ص) يديه على ما تركوا من اموال ، فقسمها على المهاجرين الاولين الذين كانوا يعانون الفقر والجوع ، ولم يمنح للانصار شيئا سوى لرجلين فقيرين منهم ، رغبة منه (ص) في اعادة التوازن الاجتماعي بين اصحابه ،وهي سابقة عملية اخرى لا تقل خطورة عن تجربة (المؤاخاة) في دلالتها الاجتماعية على رغبة الاسلام العميقة في تنفيذ التوازن الاجتماعي وتذويب الفروق الطبقية بين فئات المجتمع الواحد، واحلال التعادل والوفا من محل التقاتل والتحاقد والصراع(٤٨).

ولم يفلت عمرو بن جماش من طائلة العقاب اذ سرعان ما امر الرسول (ابن يامين بن عمير) - الذي اعلن اسلامه خلال فترة الحصار - ان يدبر امر اغتياله ، فاجابه انا اكفيكه يارسول الله . وما لبث ان اتصل برجل من قيس واعطاه عشرة دنانير لقاء تعهده بقتل بن جماش ، فادى الاعرابي المهمة ، وعاد ابن يامين لكي يخبر الرسول (ص) بالقضاء على الخائن (٤٩) .

وهكذا تم اجلاء طائفة اخرى من اليهود بسبب خرقها الميثاق وخفرها الذمة وخيانتها الرسول (ص) ، ولقد جاء

---

(٤٤) الطبري : تاريخ ٢/٤٨٧-٤٩١ ابن سعد ٢/١/٢١-٢٣ البخاري : التجريد ٢/٧٩-٨٠ الواقدي ١/١٢١-١٢٢، ١٨٤-١٩٣ ، ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٥٤-١٥٦ ابن الاثير : الكامل ٢/١٤٣-١٤٤ المقدسي ٤/١٩٧ ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٥-٩ .

(٤٥) الواقدي ١/١٩٢ .

(٤٦) الواقدي ١/٣١٧-٣١٨ ، المقريزي : امتاع الاسماع ١/١٦٥

(٤٧) عن اصل بني النضير وبني قريظة انظر : Margoliouth : The Relations between Arabs and Israelites, Lec. 3.

(٤٨) ابن هشام ص ٢٠٢-٢٠٥ الطبري : تاريخ ٢/٥٥٠-٥٥٥ ابن سعد٢/١/٤٠-٤٢ الواقدي ١/٣٦٣-٣٨٠ اليعقوبي ٢/٤٠ ابن الاثير : الكامل ٢/١٧٣-١٧٤ البلاذري : فتوح البلدان ١/١٨-١٩ ، انساب ١/٣٣٩ ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٨١-١٨٢ ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٧٤-٨٠ المقدسي ٤/٢١٢-٢١٣ .

(٤٩) الواقدي ١/٣٧٣-٣٧٤ .

انتصار المسلمين هذا في اعقاب محنتهم في احد وفجيعتهم في حادثتي الرجيع وبئر معونة ، ومن ثم تولوا زمام المبادرة ثانية ، وتغير بانتصارهم هذا مجرى الاحداث . فنزلت ـ بعد قليل ـ سورة باكملها ، هي سورة (الحشر) تعرض لظروف هذا الحدث الخطير ، وتعلق على مجرياته ونتائجه التي ما كانت لتحدث هكذا لولا ارادة الله (الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا ياولي الابصار . ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ، ولهم في الاخرة عذاب النار) (٥٠) وان كان ثمة شيء يزاد على روايات التاريخ فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الاية الرابعة من السورة الانفة (ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله وان الله شديد العقاب) اذ يصح ان يقال ان محاولة بني النضير اغتيال النبي انما كانت سببا مباشرا ، وانه كان منهم قبل ذلك مواقف شاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من اجلها التنكيل (٥١) .

(٦)

لم يشا زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر ان يظلوا ساكتين ازاء هزيمتهم وامتداد الاسلام الى كل مكان . وتدارسوا الامر فراوا ان احد اكبر الاسباب في الهزائم التي مني بها اعداء الاسلام من الوثنيين واليهود هي قتالهم المسلمين كلا على انفراد ، الامر الذي مكن هؤلاء من تصفية خصومهم وتحقيق الانتصارات المتتالية عليهم . واذن فان خير اسلوب لتفادي الهزيمة كرة اخرى هي ان يسعوا لتشكيل حلف قوي يضم كافة القوى الوثنية واليهودية وتوجيه ضربة مشتركة للاسلام لا تقوم له بعدها قائمة . وسرعان ما انطلق نفر منهم على راسهم سلام بن ابي الحقيق وحيي بن اخطب وكنانة بن ابي الحقيق ، وغيرهم ، للاتصال بقريش وغطفان وبقية القبائل الوثنية الكبرى واقناعهم جميعا بالفكرة التي توصلوا اليها . وعندما قدموا على قريش ودعوها الى حرب رسول الله (ص) وقالوا : انا سنكون معكم حتى نستاصله ، ارادت قريش ان تستوثق من خطة اليهود فسالت حييا قومه من بني النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تاتوهم فتسيروا معهم الى محمد واصحابه . فسالوه عن بني قريظة فقال : اقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تاتوهم فيميلوا معكم . وتساءل بعض رجالات قريش : يامعشر يهود ، انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، افديننا خير ام دينه ؟ اجاب اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وانتم اولى بالحق منه .. كان اليهود مستعدين لان يزيفوا كل شيء ، ويتجاوزوا منطقهم الديني نفسه في سبيل التودد الى الوثنية وتحريكها لضرب الاسلام . ولقد نجحوا في هذا السبيل ، بعد ان اتصلوا بالقبائل العربية الاخرى ، وانطلق الاحزاب في هجوم شامل على المدينة لاستئصال الاسلام (٥٢) .

ولقد ادرك زعماء بني النضير ان هدفهم لن يكسب ضمانه النهائي الا بالقناع يهود بني قريظة في يثرب ، اولئك الذين كانوا لا يزالون ملتزمين بميثاقهم مع الرسول (ص) ، بالتمرد على التزامهم والانضواء الى صفوف الاحزاب ، والعمل سوية على توجيه الضربة القاصمة للعدو والمشترك . فانطلق حيي بن اخطب (٥٣) ، وقد حوصرت المدينة ، الى حصون بني قريظة القابعة الى الجنوب منها ، وقصد زعيمها كعب بن اسد . فلما سمع هذا بقدوم حيي اغلق دونه باب حصنه تجنبا للمشاكل والتزاما بعهد رسول الله (ص) ، فاستاذنه حيي بالدخول عليه فابى ان يفتح له ، فناداه حيي محاولا اقناعه بما جاء من اجله : ويحك ياكعب !! افتح لي ! اجابه كعب : ويحك ياحيي !! انك امرؤ مشئوم واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم ار منه الا وفاء وصدقا . قال حيي : ويحك افتح لي اكلمك . اجاب كعب : ما انا بفاعل. قال حيي مستفزا رفيقه : والله ان اغلقت الحصن دوني الا على جشيشتك (٥٤) ان اكل منها معك ، فاضطر كعب الى ان يفتح لـه .

وما ان دخل زعيم بني النضير حتى بادر رفيقه قائلا : ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بمجتمع الاسيال من رومه ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بجانب احد ، وقد عاهدوني وعاقدوني على ان لا يبارحوا حتى نستاصل محمدا ومن معه . اجابه كعب وهو يخمن المصير الذي ينتظره وقومه اذا ما تمردوا على العهد : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء . ويحك ياحيي فدعني وما انا عليه ، فاني لم ار من محمد الا صدقا ووفاء . فلم يزل حيي بكعب يخاتله ويراوغه ويمنيه حتى اجابه كعب بعد ان شرط عليه انه اذا ما عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا دخل معه حصنه حتى يصيبه ما اصابه . وعند ذاك قام كعب بنقض العهد ، واعلن براءته مما كان بينه وبين محمد (ص) (٥٥) .

عندما بلغت رسول الله (ص) انباء نقض بني قريظة عهدها معه بعث سعد بن معاذ سيد الاوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج واخرين وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا احق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ام لا ؟ فتوجه هؤلاء الى حصون قريظة وسالوهم عما بلغهم عنهم ، فما كان جوابهم الا ان قالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وعندما عنفهم سعد بن معاذ شتموه . وعاد الرجال لكي يخبروا الرسول (ص) عن صحة ما ورده من انباء زادت المسلمين بلاء على بلاء (٥٦) .

وسرعان ما همت بنو قريظة في القيام بهجوم ليلي على قلب المدينة وارسل زعماؤها حيي بن اخطب الى معسكر قريش لكي

---

(٥٠) ابن هشام ص ٢٠٥ الواقدي ١/٣٨٠-٣٨٣ وعن الايات المتعلقة باجلاء بني النضير انظر سورة الحشر ٢-٧ ، ١١-١٧ .

(٥١) دروزة : عصر الرسول (ص) ٢/١٩٨ .

(٥٢) ابن هشام ص ٢١١-٢١٢ الواقدي ٢/٤٤١-٤٤٢ وانظر: الشريف : مكة والمدينة ص ٤٥٥ .

(٥٣) يذكر ابن سعد ٢/١/٤٨ بان ابا سفيان هو الذي دس حييا الى بني قريظة كي ينقضوا عهدهم . ويذهب الواقدي الى ما ذهب اليه ابن سعد : المغازي ٢/٤٥٤-٤٥٥ .

(٥٤) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظا .

(٥٥) ابن هشام ص ٢١٤-٢١٥ الطبري : تاريخ ٢/٥٧١-٥٧٢ الواقدي ٢/٤٥٤-٤٥٧ .

(٥٦) ابن هشام ص٢١٥ الطبري : تاريخ ٢/٥٧٢ الواقدي ٢/٤٥٧-٤٥٩ .

ياتي بالفي رجل منها ومن غطفان يستعينون بهم على هذا الهجوم ، الامر الذي دفع الرسول (ص) الى تجريد كتيبتين من خمسمائة فارس لحراسة المدينة والطواف في احيائها ورفع معنويات اهاليها . ويحدثنا ابو بكر الصديق (رض) فيقول « لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة اشد من خوفنا من قريش وغطفان.. فكان مما رد الله به بني قريظة عما ارادوا ان المدينة كانت تحرس » (٥٧) . وكان الرسول (ص) يبعث العيون من جهته الى بني قريظة لكي يجيئوه باماكن خللهم ونقاط ضعفهم (٥٨) . وقد تمكن عشرة من اشداء اليهود من التسلل يوما الى اطراف المدينة فتصدى لهم نفر من المسلمين واشتبكوا معهم في قتال بالنبال اسفر عن تراجع اليهود واحتمائهم بحصونهم ، وسيطر الرعب عليهم « فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفا شديدا » (٥٩) .

وصمد المسلمون لمحنة (الاحزاب) وتمكنوا من دحر اخطر هجوم في تاريخ دعوتهم ، فتفككت عرى الاحزاب وقفلت عائدة الى ديارها ، وحان الوقت لانزال العقاب العادل بالجماعة اليهودية التي نقضت العهد في اخطر ساعة عاشها المسلمون . جاء جبريل (ع) الى الرسول (ص) وساله : او قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ اجاب الرسول : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الان الا من طلب القوم . ان الله عز وجل يامرك يامحمد بالمسير الى بني قريظة، فاني عامد اليهم فزلزل بهم . فامر الرسول (ص) مؤذنا يؤذن في الناس (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببني قريظة) (٦٠) ، اسراعا بالمسلمين الى هدفهم استنهاضا لهممهم بعد الجهد والعناء الذي اصابهم خلال ايام الحصار الشاقة .

لقد ادرك الرسول (ص) بثاقب فكره اهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال فلو انه ابطأ حركته هذه لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائهم، او اقناع اليهود الاخرين بمعاونتهم ، او التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتدعيم قوتهم ، ولكان بامكانهم اكمال قضاياهم الادارية التي يحتاجونها في القتال حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم اطول مدة ممكنة ولكن اسراع الرسول لتطويقهم حال بين اليهود وبين كل ذلك ، اذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الاكيد لانسحاب الاحزاب ليسبقوا النظر في اعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين ، بل ان حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافي لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم، كما لم تترك لهم الوقت الكافي لتنظيم اي خطة على الاطلاق .. كما ان حركة المسلمين مبكرا شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم (٦١) .

ومما يزيد في قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الاحزاب ، لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم مدة حوالي شهر في موقف عصيب يحطم اعصاب الشجعان . وكان الطقس باردا وقد تحملوا البرد في العراء وقتا طويلا اثناء حصارهم فلما انسحبت الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ما هي امكانيات اعاشتهم مثلا وهي اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ ان عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لفرض الاسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعو الى الاعجاب والتقدير (٦٢) .

استمر الحصار خمسا وعشرين ليلة وبدا الرعب يتسرب الى قلوب اليهود ، وادركوا لا قدرة لهم على الصمود حتى النهاية . ولما ايقن زعيمهم كعب بن اسد ان الرسول (ص) غير منصرف عنهم حتى ينزل بهم عقابه ، عرض على قومه حلولا عدة علها تخلصهم من المازق الذي اوقعوا انفسهم فيه : يامعشر يهود ، قد نزل بكم من الامر ما ترون ، واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا ايها شئتم قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم انه لنبي مرسل ، وانه للذي تجدونه في كتابكم فتامنون على دمائكم وابنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة ابدا، ولا نستبدل به غيره . قال: فاذا ابيتم علي هذه فهلم فلنقتل ابناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد واصحابه رجالا مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وان فظهر فلعمري لنجدن النساء والابناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ، فما خير العيش بعدهم ؟! قال : فان ابيتم علي هذه فان الليلة ليلة السبت ، وانه عسى ان يكون محمدا واصحابه قد امنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد واصحابه غرة . قالوا : نفسد علينا سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت ، فاصابه ما لم يخف عليك من المسخ . وقال نباش بن خنيس ، احد زعمائهم : وكيف نصيب منهم غرة وانت ترى ان امرهم كل يوم يشتد ، كانوا اول ما يحاصرونا انما يقاتلون بالنهار ويرجعون الليل .. فهم الان يبيتون الليل ويظلون النهار ، فاي غرة نصيب منهم ؟ قال كعب : ما بات رجل منكم، منذ ولدته امه ، ليلة من الدهر حازما . ومن ثم اعلن اليهود نزولهم على حكم الرسول (ص) (٦٣) .

عهد الرسول (ص) الى سعد بن معاذ ، زعيم الاوس ، وقد كان بنو قريظة مواليهم ، باصدار الحكم . وكان سعد انذاك يعرض من جراحه التي اصابته في معركة الخندق ، تشرف على تمريضه في المسجد امراة تدعى رفيدة كانت تداوي الجرحى ، وتتولى رعاية من لا اهل له من المقاتلين . فجاء به قومه يحملونه وهم يقولون : يا ابا عمرو احسن في مواليك، فان رسول الله (ص) انما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فكلما الحوا عليه قال : لقد آن لسعد الا تاخذه في الله لومة لائم ، ثم اصدر حكمه : بقتل الرجال المحاربين ، وتقسيم الاموال ، وسبي الذراري والنساء . فما كان من الرسول (ص) الا ان قال له (لقد حكمت فيهم بحكم الله ـ من فوق سبع سماوات ـ وحكم رسوله) !! (٦٤)

---

(٥٧) الواقدي ٢/٤٦٠ .
(٥٨) المصدر السابق ٢/٤٦١-٤٦٢ .
(٥٩) المصدر السابق ٢/٤٦٢ .
(٦٠) ابن هشام ص ٢٢٣ الطبري : تاريخ ٢/٥٨١ ابن سعد ٢/١/٥٣-٥٥ الواقدي ٢/٤٩٦-٤٩٩ البلاذري : انساب ١/٢٤٧-٢٤٨ .
(٦١) شيت خطاب : الرسول القائد ص ١٦٧ .
(٦٢) المصدر السابق ص ١٦٨ .
(٦٣) ابن هشام ص ٢٢٤-٢٢٥ الطبري : تاريخ ٢/٥٨٣-٥٨٤ الواقدي ٢/٥٠١-٥٠٢ ابن الاثير : الكامل ٢/١٨٥-١٨٧ السمهودي : وفاء الوفا ١/٢١٨-٢٢٠ .
(٦٤) ابن هشام ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ الطبري : تاريخ ٢/٥٨٦ ـ

لم يكن رجال بني قريظة سوى مجرمي حرب ، وفق قوانين القتال المعاصرة ، نقضوا العهد ، وانضموا الى الاعداء والحرب قائمة بين المسلمين والاحزاب ، فكان نقضهم خيانة عظمى ، ولم يكن عقابهم العادل المكافىء لفعلتهم سوى القتل . وقد انزلوا من حصونهم مقرنين في الاصفاد ، وحفرت لهم الخنادق ، ثم جيء بهم فوجا فوجا حيث لاقوا مصيرهم ودفنوا هناك ، وبلغ عددهم بين الستمائة والسبعمائة رجل فيهم سيدهم كعب بن اسد وحيي بن اخطب زعيم بني النضير الذي كان قد لجأ الى حصون بني قريظة بعد انسحاب الاحزاب ، وامراة كانت قد القت ـ خلال الحصار ـ رحى على مسلم يدعى خلاد بن سويد فقتلته . وما ان تم تنفيذ الحكم برجال بني قريظة حتى انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدا (٦٥) بعد ان استجاب ربه لدعائه يوم جرح في معارك الخندق « اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فابقني لها فانه لا قوم احب الي ان اجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه واخرجوه اللهم وان كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة » (٦٦) .

وبفتح حصون بني قريظة يكون المسلمون قد تخلصوا من آخر كتلة يهودية في المدينة اختارت بنفسها ـ كسابقاتها ـ أن تقف من الاسلام موقف الحقد والعداء ، وان تنقض ميثاقها مع الرسول (ص) . ولم يكن الرسول (ص) ليستخدم اسلوب العقاب الجماعي ازاء اليهود الذين لم يروا منه ـ كما قال سيدهم كعب بن اسد ـ الا وفاء وصدقا . فكان لا يعاقب الا القبائل التي نقضت عهدها معه تاركا القبائل الاخرى تمارس حريتها الدينية والمدنية كاملة ما دامت على عهدها وهكذا لم تؤد حادثة سوق الصاغة الا الى اجلاء مسببيها من بني قينقاع ، كما تؤد محاولة اغتياله الا الى طرد القائمين بها من بني النضير ، ولو ظلت بنو قريظة على عهدها ، ولم تمارس خيانتها الخطيرة في معركة الخندق ، فكان لها شان اخر غير المصير الذي انتهت اليه . هذا فضلا عن أن العقاب الذي كان الرسول (ص) ينزله بخصومه اليهود ، كان يجيء دوما مكافئا لحجم الجرم الذي مارسته الكتل اليهودية ، اذ سمح لكل من بني قينقاع وبني النضير بالخروج الى اي مكان يشاءون داخل الجزيرة ام خارجها ، بعد ان حقن دماءهم ، ولم يستخدم اسلوب القتل الا ازاء اولئك الذين خانوا العهد في ساحة الحرب وتعاونوا مع الاعداء ، وهو العقاب الذي تمارسه جميع القوانين . اما اليهود ، كافراد لا ينتمون الى هذه الكتلة وتلك من الكتل اليهودية ذات الوجود السياسي والعسكري ، فقد ظلوا حتى النهاية يمارسون حقوقهم وحريتهم في مدينة الرسول (ص) بدليل انه توفي (ص) ودرعه مرهونة عند واحد من هؤلاء !!

٥٨٨ ابن سعد ٥٤/١/٢ الواقدي ٥٠١/٢ ـ ٥١٢ اليعقوبي ٤٣/٢ البلاذري : فتوح ٢٣/١ ـ ٢٤ ، انساب ٣٤٧/١ البخاري : تجريد ٨٢/٢ ـ ٨٣ ابن كثير : البداية والنهاية ١١٦/٤ ـ ١٢٦ .

(٦٥) ابن هشام ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ، ٢٣٢ الطبري : تاريخ ٥٨٨/٢ ـ ٥٨٩ ، ٥٩٢ الواقدي ٥١٣/٢ ـ ٥١٨ السمهودي : وفاء الوفا ٢٢٠/١ ـ ٢٢١ ابن كثير : البداية والنهاية ١٢٦/٤ ـ ١٣٠ .

(٦٦) الطبري : تاريخ ٥٧٥/٢ ابن سعد ٥٦/١/٢ الواقدي ٥١٢/٢ ، ٥٢٥ .

(٧)

راح الرسول (ص) ينتظر الفرصة المواتية لضرب التجمع اليهودي السياسي الاخير في خيبر والمواقع المجاورة بسبب ما كانت تمارسه ضد الاسلام ، فمنها انطلق زعماء اليهود لدعوة القبائل العربية وتحزيبها ضد المسلمين ، ومنها خرج حيي بن اخطب ودفع بني قريظة الى الانتقاض في اللحظات العصيبة . وقد غدت خيبر بمرور الايام ملجا يأوي اليه اليهود المبعدون عن المدينة ، ينتظرون الفرصة للانتقام من الاسلام ، واسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردهم الرسول (ص) منها . وقد اتضح هذا في الايام القلائل التي اعقبت هزيمة بني قريظة ، اذ بلغت خيبر انباء هزيمة قريظة فاتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم وسالوه الراي فاجابهم : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى ، ولا نستعين باحد من العرب ، فقد رايتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب .. ثم نسير اليه في عقر داره .. فقالت اليهود هذا الراي(٦٧) ولكن بعض الزعماء عارضه في الاقدام على مجازفة كهذه غير مامونة النتيجة . وفضلا عن هذا كله فان يهود خيبر كانوا السبب في خروج سرية يقودها علي بن ابي طالب (رض) في اواخر العام السادس الهجري ، كانت وجهتها فدك حيث يقطن حي من بني سعد بن بكر كانوا قد سعوا الى مد ايديهم لاولئك اليهود لقاء ان يمنحوهم جزء من ثمار خيبر(٦٨) .

وها هم الان يحالفون مع غطفان في محاولة جديدة ضد المدينة . وقد علم الرسول (ص) بما يدور في خلدهم فاخذ يتهيا لقتالهم ويمهد لذلك بارسال مجموعات من فدائيي الانصار لاغتيال بعض قادة اليهود هناك كسلام ابن ابي الحقيق واليسير بن رزام الذي كان يجتمع ببني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول اهل خيبر في حرب مع المسلمين(٦٩) . ويحدثنا عبدالله بن عتيك امير السرية الانصارية ذي الرجال الخمسة او التي كلفها الرسول (ص) مهمة قتل الزعيم اليهودي فيقول : « لما دنونا من الحصن ، وقد غربت الشمس ، وراح الناس بسرحهم ، قلت لاصحابي اجلسوا مكانكم فاني سانطلق واتلطف الى البواب لعلي أدخل » .. ثم اقبل حتى اذا دنا من الباب تقنع بثوبه كانه يقضي حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : ان كنت تريد ان تدخل فادخل فاني اريد ان اغلق الباب .. فتناول المفاتيح التي كان البواب قد علقها على وتد هناك ثم اتجه الى حيث يقوم سلام بن مشكم الملقب بابي رافع .. « كان ابو رافع يسمر في علالي، فلما ذهب عنه اهل سمره صعدت اليه ، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقته علي من داخل .. حتى انتهيت اليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا ادري اين هو من البيت ! قلت : ابا رافع ! قال : من هذا ؟ فاهويت نحو الصوت اضربه بالسيف، فما اغنى شيئا وصاح ، فخرجت من البيت ومكثت غير بعيد ، ثم دخلت اليه وقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال : لامك الويل ، ان رجلا بالبيت ضربني بالسيف . فانقضضت عليه ووضعت حد السيف في بطنه حتى اخرجته من ظهره ، فعرفت اني قد قتلته ، وجعلت افتح الابواب بابا فبابا ، حتى

(٦٧) الواقدي ٥٣٠/٢ ـ ٥٣١ .
(٦٨) الطبري : تاريخ ٦٤٢/٢ ابن سعد ٦٥/١/٢ .
(٦٩) ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

أنتهيت الى درجة فوضعت رجلي وانا أرى أني أنتهيت الى الارض ، فوقعت فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامتي ثم انطلقت حتى جلست عند الباب : والله لا ارجع الليلة حتى اعلم اقتلته ام لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور ينعى ابا رافع ، فانطلقت الى اصحابي وقلت النجاء .. قد قتل الله ابا رافع » .. وقفل عبدالله بن عتيك ورفاقه عائدين الى المدينة ليخبروا الرسول بالمهمة التي انجزوها(٧٠) . وبعد ابي رافع جاء دور اسير بن رزام حيث ندب له الرسول (ص) ثلاثين رجلا بقيادة عبدالله بن رواحة ، فاستدرجوه وعددا من اصحابه واحتالوا عليهم وقتلوا اميرهم اسير ومعظم اصحابه ثم قفلوا عائدين الى المدينة دون ان يفقدوا احدا(٧١) !!

كان الرسول (ص) قد عقد صلح الحديبية مع قريش في اواخر السنة السادسة للهجرة وامن ـ بموجبه ـ جانبها ، ووجد الفرصة سانحة لتوجيه نشاطه صوب الشمال حيث يقبع الخطر اليهودي الذي لايكف عن التآمر والعدوان متمثلا بخيبر والمواقع المجاورة ، وما لبث الرسول (ص) بعد اسابيع من عودته الى المدينة ان انطلق (مطلع السنة السابعة) صوب خيبر رأس حملة استنفر لها الراغبون في الجهاد فحسب دون الغنائم . ذلك ان يهود خيبر كانوا اقوى الطوائف اليهودية باسا واعظمها دربة على القتال ، ولذلك وقفت شبه الجزيرة كلها متطلعة الى هذه الغزوة . وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين(٧٢) وكان النبي (ص) يدرك انه لو فشل امام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة اعادت لاعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله ، وحالت دون اتمام الوحدة التي يعمل لها النبي ويسعى اليها . لذلك فانه كان يريد جيشا مؤمنا باهدافه مقدرا للظروف .. يريد سيوفا تحركها قوة النفس لاجشعها ، وكان جيش محمد كما اراده ، قليلا بعدده كثيرا بايمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لاهدافهم (٧٣) . ويذكر المقريزي ان عدد المسلمين الذين توجهوا الى خيبر كانوا الفا واربعمائة مقاتل يصحبهم مائتا فرس(٧٤) ، ربما اعتمادا على عددهم يوم الحديبية القريب . كما اسهم في الخروج عدد من النسوة خرجن ليداوين الجرحى وينسجن الملابس ويهيئن الطعام .

جعل الرسول (ص) هدفه اول الامر السيطرة على الطريق الواصل بين خيبر وغطفان ليحول بين هؤلاء وبين ان يمدوا حلفاءهم في خيبر . وكان بنو غطفان ، لدى سماعهم بتوجه الرسول الى خيبر قد خرجوا ليساندوا اليهود ضده لقاء نصف ثمار خيبر لذلك العام ، فاضطرهم الرسول (ص) للعودة الى ديارهم بعد ان اوهمهم انه متجه اليهم . ومن ثم انفرد بخيبر وباغتها فجرا حيث كان اهلوها ورجالها قد خرجوا الى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا الرسول (ص) يقود جيش المسلمين تملكهم الخوف ونادوا « محمد والخميس » وهربوا لاذين بحصونهم ، وهياوا انفسهم لحصار طويل ، فنادى الرسول (ص) ، ملقيا مزيدا من الرعب في قلوبهم : « الله اكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »(٧٥) .

كانت خطة الرسول (ص) في الاستيلاء على حصون اليهود المنيعة في خيبر تتلخص بمشاغلة بعضها بقوات صغيرة ، وتركيز الهجوم على حصن واحد بقواته الرئيسية حتى يتم له الاستيلاء على الحصن ثم ينتقل بهجومه المركز الى حصن اخر . كما انه قسم قواته الى اقسام بالنسبة الى قبائلها وبطونها ، وجعل لكل قسم قائدا حتى يشتد التنافس بين القوات ولكي يقوم بعضها بالمشاغلة بينما ياخذ الباقي قسطا من الراحة ليستانف القتال مرتاحا عند الحاجة . ان هذه الخطة تتفق مع احدث الخطط العسكرية الحديثة في قتال المدن والاحراش ، ولو انه قام بالقتال باسلوب الكر والفر او باسلوب الصفوف في مثل هذا الموقف لما كتب للمسلمين النصر(٧٦) .

وبدا الهجوم ، وراحت حصون خيبر الممتدة في المنطقة على شكل سلاسل ، والمنقسمة الى ثلاث مناطق حربية هي : النطاة والشق والكتيبة (٧٧) ، يدافع عنها زهاء عشرة الاف مقاتل (٧٨) تسقط بايدي المسلمين حصنا بعد حصن ، وكان اولها سلاسل حصون ناعم والقموص ، وراح عدد من المدافعين يتسللون هاربين من حصونهم ، واتصل بعضهم بالرسول (ص) ودله على نقاط الضعف في مواقع اليهود . ومن اجل ان يعجل الرسول (ص) بكسب المعركة حض اصحابه على الجهاد واخبرهم ان اليهود قد اسلمها حلفاؤها وهربوا ، وانها قد تجادلت واختلفت فيما بينها فزاد من ثقة المسلمين بالنصر . وكان اخر الحصون مقاومة للمسلمين سلاسل الوطيح والسلالم وقلعة الزبير حيث عصى اليهود وظلوا يقاومون بضعا وعشرين ليلة جرت خلالها مبارزات فردية بين فرسان الفريقين وهجمات عديدة قادها كبار الصحابة وسقط فيها ما يقرب من مائة قتيل يهودي وخمسة عشر مسلما ، حتى اذا ايقن المدافعون بالهلكة سالوا الرسول (ص) ان يجليهم عن المنطقة وان يحقن دماءهم فاجابهم الى طلبهم ، فلما نزلوا اليه عرضوا عليه ان

---

(٧٠) انظر بالتفصيل : الطبري : تاريخ ٤٩٣/٢ ـ ٤٩٥ الواقدي ٣٩١/١ ـ ٣٩٥ ابن سعد ٦٦/١/٢ البلاذري : انساب ٣٧٦/١ البخاري : تجريد ٨٠/٢ ابن الاثير : الكامل ١٤٦/٢ ـ ١٤٨ ابن حزم : جوامع السيرة ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٤ ـ ١٤٠ ويلاحظ ان هذه المصادر لا تتفق في تحديد تاريخ هذه الحادثة فبعضهم يجعلها قبل الخندق وبعضهم الاخر يجعلها بعدها الا ان المرجح ـ كما يبدو من سياق الاحداث ـ ان ذلك حدث بعد معركة الخندق .

(٧١) ابن سعد ٦٧/١/٢ .

(٧٢) انظر ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٢٦ .

(٧٣) الشريف : مكة والمدينة ص ٤٩٥ ـ ٤٩٨ .

(٧٤) امتاع الاسماع ٣٢٧/١ .

(٧٥) ابن هشام ص ٢٥٩ـ٢٦١ الطبري : تاريخ ٩/٣ ابن سعد ٧٧/١/٢ الواقدي ٦٢٤/٢ـ٦٤٣ .

(٧٦) شيت خطاب : الرسول القائد ص ٢٠٨ـ٢٠٩ .

(٧٧) انظر ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٦٦ .

(٧٨) يخطىء اليعقوبي ٤٦/٢ في جعلهم عشرين الفا ، وهو يمارس المبالغة وعدم الدقة في اكثر من موضع .

بيقيهم في ارضهم لقاء ان يدفعوا للمسلمين نصف حاصلاتهم ، فوافق الرسول (ص) على العرض تقديرا منه لامكاناتهم الزراعية ، ورغبة منه في الافادة من اية طاقة في اعمار الارض واستثمارها الا انه بين لهم ان موافقته هذه غير ملزمة الى الابد « فانا ان شئنا ان نخرجكم اخرجناكم » لما يعرفه عن طبع اليهودي من عدم الوفاء بالعهد ومن انتهاز اية فرصة تسنح للغدر والخيانة (٧٩) .

ويزيد ولفنسون مسالة معاملة يهود خيبر وضوحا فيبين ان خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها من الحدائق والمزارع والنخيل ما يحتاج للايدي الكثيرة التي مارست اشغال الزراعة والفلاحة ، ولم يكن من العرب مارس ذلك الا النزر اليسير . وفوق ذلك لم يرض الرسول ان يترك من انصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها لاحتياجه اليهم في الاعمال الحربية . ولم يكن في الامكان ترك هذه الارض الخصبة بورا لا تنتج زرعا ولا ثمرا ، والدولة الاسلامية الناشئة كانت في اشد الحاجة الى الاموال الكثيرة ، فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الارض وينتجوا منها الزرع والثمر ، ولذا كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين اكثر منها في جانب المغلوبين .. وما دامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في اراضيهم(٨٠).

وهناك امر يستوقف النظر وهو انه كان بين المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها امر النبي بتسليمها لهم . ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون الى النبي بالبنان حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة . ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على اورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب.م اذ احرقوا الكتب المقدسة وداسوها بارجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حيث احرقوا ايضا صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام (٨١) .

لكن اليهود تناسوا ، بعد قليل ، هذه المواقف السمحة العادلة ازاءهم وسعوا الى الثار لانفسهم كلما سنحت الفرصة لذلك . كانت اولى المحاولات ما تم على يد زينب ابنة الحارث، زوجة سلام بن مشكم ، اذ اهدت للرسول (ص) شاة مشوية نثرت فيها السم ، فلما مضغ من ذراعها مضغة لم يسغها ولفظها قائلا : ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم . وكان بشر بن البراء قد اكل هو الاخر فمات بعد قليل ، وجيء بالجانية فاعترفت وقالت للرسول (ص) : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيخبر ، فتجاوز عنها الرسول (٨٢) وقيل انه قتلها (٨٣) . ويذكر الواقدي (٨٤) وعدد اخر من المؤرخين ان وفاة الرسول(ص) التي جاءت بعد ثلاث سنوات كانت بسبب السم الذي دس له يوم خيبر (٨٥) ، وهو احتمال ضعيف بعد مرور هذه المدة الطويلة .

بعد فترة قصيرة قام يهود خيبر باغتيال عبدالله بن سهل الانصاري ، الا ان الرسول (ص) ، ومن بعده ابابكر (رض) ، ابقياهم على ما كان الرسول (ص) قد اشترط عليهم ، سيبقيا وانهما ـ كما يقول ابن سعد ـ لم يكن لهما من العمال ما يكفون عمل الارض (٨٦) . وعندما تولى عمر (رض) الخلافة وبلغتـه انباء اغتيال المسلم من قبل يهود خيبر واعتدالهم على عبدالله بن عمر ، وكثر عمال المسلمين وتقووا على استثمار الارض ، وتنفيذا لحديث الرسول (ص) يوم وفاته الا يجتمع في جزيرة العرب دينان ، اصدر انذاره الى يهود خيبر « ان من كان عنده عهد من رسول الله (ص) فليأتني به انفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء » ومن ثم قام باجلاء عدد من يهود خيبر وقسم اموالهم على المسلمين (٨٧) .

ونحن لا نستطيع ان ندرك مغزى حديث الرسول (ص) الا اذا عدنا باذهاننا الى الوراء ، الى السنة التاسعة للهجرة، حيث نزلت آيات براءة تعلن انهاء الوجود الوثني من جزيرة العرب ، وحيث ان الضرورتين الاستراتيجية والحضارية هما اللتان دفعتا الى اتخاذ هذا الموقف ومن ثم يجيء تاكيد الرسول (ص) في اخريات حياته ، الا يجتمع دينان في الجزيرة، ضمانة اخرى بصدد تعزيز الاستراتيجية الاسلامية التي رسمها (ص) واستهدف منها جعل جزيرة العرب قاعدة اسلامية خالصة، ومهيأة لانطلاق اتباعه برسالته الى العالم كله ، وهم قد امنوا على ظهورهم من طعنات اتباع الديانات الاخرى في قلب بلادهم ،

---

(٧٩) ابن هشام ص ٢٦١–٢٦٤ الطبري : تاريخ ٢/١٠–١٥ ، ٢٠–٢١ ابن سعد ٢/١/٨٠ الواقدي ٢/٦٤٣–٦٧٧ ، ٦٩٠–٦٩١ البلاذري : فتوح ١/٢٥–٢٦ انساب ١/٣٥٢ وانظر المقريزي : امتاع الاسماع ١/٣١٠–٣٣٢ .

(٨٠) تاريخ اليهود ص ١٦٩ .

(٨١) المصدر السابق ص ١٧٠ .

(٨٢) ابن هشام ص ٢٦٤–٢٦٥ الطبري : تاريخ ٣/١٥–١٦ الواقدي ٢/٦٧٧–٦٧٩ .

(٨٣) ابن سعد ٢/١/٧٨ .

(٨٤) المغازي ٢/٦٧٨–٦٧٩ .

(٨٥) انظر المسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٢٣–٢٢٤ .

(٨٦) الطبقات الكبرى ٢/١/٨٢–٨٣ .

(٨٧) الواقدي ٢/٧١٣–٧٢١ ابن سعد ٢/١/٨٣ الطبري : تاريخ ٣/٢٠–٢١ البلاذري : فتوح ١/٢٥ ، ٢٧–٢٨، ٣١، ٤٠ وبذكر ولفنسون (تاريخ اليهود ص ١٨٣) ان عمر (رض) لم يتعرض ليهود وادي القرى وتيماء بسوء وانه يؤخذ من هذا ان اهاليها كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة باخراجهم من بلادهم . كما يذكر انه بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادي عشر، وكذلك وجدت طوائف منهم في جهات تيماء في القرن الثاني عشر .. اما في بلاد اليمن فقد بقي اليهود طوال العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من اطراف الجزيرة الى ايامنا هذه (المصدر السابق ص ١٨٦) . وعن فتح خيبر ومسالة اخراج اليهود من الجزيرة انظر كذلك كتاب الخراج لابي يوسف ص ٢٩ وكتاب الاموال لابي عبيد ص ٩٩ وابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٨١–٢٢٠ .

ومن السموم التي يمكن ان تنفثها جيوبهم المنبثة هناك ، والتي لم تكن حركات الردة والتنبؤ باقلها خطرا !! وهذا الموقف لا يتعارض مع بقاء بعض التجمعات اليهودية المسالمة التي لا تملك تاثيرا كبيرا في بعض مناطق الجزيرة والتي كانت تربطها مع الرسول (ص) عهود خاصة .

لما سمع يهود فدك ، القرية اليهودية المجاورة ، بما حل برفاقهم في خيبر من معاملة طيبة بعثوا الى الرسول (ص) يعلنون رغبتهم في المصالحة على مناصفة اراضيهم (٨٨) . اما وادي القرى فقد ظلت عاصية ، فتوجه اليها الرسول (ص) وفرض الحصار عليها ، ودعا اهليها الى الاسلام ، واخبرهم انهم ان اسلموا احرزوا اموالهم وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله ، ولكنهم ابوا واصروا على القتال وجرت بين الطرفين مناوشات محدودة ، والرسول يعرض عليهم الاسلام وهم يأبون، مما دفعه الى تشديد الحصار عليهم حيث تمكن بعد قليل من فتح بلدهم عنوة ، وبقي هناك اربعة ايام قسم خلالها الغنائم على اصحابه وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها . ولما بلغت يهود تيماء انباء الانتصارات الاسلامية صالحوا الرسول (ص) على الجزية واقاموا في بلدهم (٨٩) .

(٨)

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة ثم تصفية اخر تجمع يهودي لعب دوره في مواجهة الاسلام وخصومته ووضع العوائق في طريقه ، وحبك المؤامرات ضده ، وقضي قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز ، وغدت كلمة الاسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية ، وكبتت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسد هذه الدولة التي يحيط بها الاعداء من كل مكان .

ويذكر ابن سعد ان الرسول (ص) نشط في نفس العام (٧هـ) في الكتابة الى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في اقصى الشمال لتحديد موقفها من الاسلام . فبعث الى بني جنبة بمقنا القريبة من ايلة على خليج العقبة « اما بعد فقد نزل علي (رسلكم) راجعين الى قريتكم ، فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون لكم ذمة الله وذمة رسوله ، وان رسول الله غافرا لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم لا ظلم عليكم ولا عدى . وان رسول الله جاركم مما منع منه نفسه .. وان عليكم .. ربع ما اخرجت نخلكم وربع ما صادت عروكم (مراكبكم) وربع ما اغتزل نساؤكم وانكم برئتم - بعد - من كل جزية او سخرة . فان سمعتم واطعتم فان على رسول الله ان يكرم كريمكم ويعفو عن مسيئكم .. وان ليس عليكم امير الا من انفسكم او من اهل رسول الله .. » . وكتب لجماعة اخر من اليهود تدعى بنو فاديا (.. ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ..) كما كتب لبني عريض كتابا اخر يحدد فيه ما عليهم ان يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم وعدم ظلمهم اياهم (٩٠) .

وكتب لاهل جرباء واذرح من اليهود (انهم آمنون بامان الله وامان محمد ، وان عليهم مائة دينار في كل رجب ، وافية طيبة ، والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجأ اليهم من المسلمين ..) (٩١) . وبذلك تمكن الرسول (ص) من تحويل هذه التجمعات اليهودية في اقصى الشمال الى جماعات من المواطنين في الدولة الاسلامية ، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية او عينية ، ويحتمون بقوتها وسلطانها ، ويتمتعون بعدلها وسماحتها .

ولقد ظل اليهود بعدئذ ، كمواطنين ، وليسوا كتلا سياسية او عسكرية ، يمارسون حقوقهم في اطار الدولة الاسلامية ، لا يمسهم احد بسوء ، وعاد بعضهم الى المدينة بدليل ما ورد عن عدد منهم في سيرة بن هشام وفي مغازي الواقدي. وهناك الكثير من الروايات والنصوص التاريخية التي تدل على ان الرسول (ص) كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح ، حتى انه وحتى عامله معاذبن جبل (بالايفتن اليهود عن يهوديتهم) . وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا بدفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم .. واهم من كل ذلك تلك الحقوق والامتيازات التي منها الرسول لآل بني حنينة الخيبرية واهل مقنا ، كما منح الرسول اسرا غير قليلة من اهل خيبر حقوقا لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الاقرار على الاراضي وابقائه لهم نصف الثمار - فان هذا كان من حق كل يهود خيبر - وقد نص على ذلك ابن هشام والبخاري (٩٢) .

ومضت السنين الاخيرة من حياة الرسول (ص) والاسلام يزداد قوة ومنعة وانتشارا .. لكنه ما ان توفي حتى وجد اليهود المبعثرون في الجزيرة وبلاد العراق والشام بغيتهم المنشودة والتقوا بيومهم الموعود ، فراحوا يتكالبون ، كما تكالب غيرهم من اعداء الاسلام ، ضد الدولة التي مات قائدها ومؤسسها ، فليس من طبع المنهزمين ان يسكتوا على هزائمهم ، وهم لابد ان يسعوا ، معتمدين اي اسلوب ، لاسترداد مواقعهم ومصالحهم التي جردوا منها . وليس ادل في هذا المجال من حديث عائشة (رض) حيث تقول « لما توفي رسول الله (ص) ارتدت العرب ، واشرابت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم (ص) حتى جمعهم الله على ابي بكر » (٩٣) .

ومن ثم فان لنا ان نتصور - رغم قلة الروايات وانعدامها احيانا - حجم الدور اليهودي في حركات الردة والتنبؤ ، في عهد ابي بكر الصديق (رض) .. وفيما بعد ، في (الفتنة) التي زعزعت اركان الخلافة الراشدة ، والتي لعب ابن سبا فيها - واخرون غيره لم تنكشف اسماؤهم بعد - دورا خطيرا .

---

(٨٨) الواقدي ٧٠٦/٢-٧٠٧ البلاذري : فتوح ٣٣/١ خليفة بن خياط : تاريخ ٤٧/١-٤٨ .

(٨٩) الواقدي ٧٠٩/٢-٧١١ البلاذري : فتوح ٣٩/١-٤٠ المسعودي : التنبيه والاشراف ٢٢٤-٢٢٥ .

(٩٠) الطبقات الكبرى ٢٨/٢/١-٣٠ .

(٩١) المصدر السابق ٣٧/٢/١-٣٨ .

(٩٢) ولفنسون : تاريخ اليهود ص ١٧٥-١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١ وانظر البلاذري : فتوح ٦٦/١ في ٨٥، ٩١ وانظر كذلك هامش رقم (٨٧) .

(٩٣) ابن هشام ص ٤٠٤ .

اهم المصادر والمراجع

اولاً ـ المصادر :

القـــرآن الكريم .

اســفار : اشعيا ، التثنية ، دانيال ، المزامير .

ابن الاثير : عزالدين ابو الحسن بن محمد الجـــزري (ت ٦٣٠ هـ) .

اسد الغابة في معرفة الصحابة ، جمعية المعارف ، مصر ـ ١٢٨٥هـ . الكامل في التاريخ ، دار صادر ـ دار بيروت ، بيروت ـ ١٩٦٥-١٩٦٧ .

البلاذري : احمد بن يحي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) .

انساب الاشراف ، الجزء الاول ، تحقيق د . محمد حميدالله ، معهد المخطوطات لجامعة الدول العربية ودار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٥٩ . فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح‌الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ـ ١٩٥٦-١٩٥٧

ابن حزم : ابو محمد علي بن احمد الاندلسي (ت٤٥٦هـ)

جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس و د . ناصرالدين الاسد ، دار المعارف (ا) ، سلسلة تراث الاسلام رقم (٢) .

ابن خياط : خليفة بن خياط بن ابي هبيرة (ت٢٤٠هـ) .

تاريخ خليفة ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، مطبعةالاداب، النجف ـ ١٩٦٧ .

ابن سعد : محمد بن سعد (ت٢٣٠ هـ) .

كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق ادوار سخاو ورفاقه ، طبع مصورا عن طبعة ليدن ـ بربل ـ ١٣٢٥ هـ ، مؤسسة النصر ـ طهران .

السمهودي : ابو الحسن علي نورالدين (ت ٩١١ هـ) .

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، مطبعة الآداب ، مصر ـ ١٣٢٦ هـ .

الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابي الفضـــل ابراهيم دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ، سلسلة ذخائر العرب (٣٠) .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر .

ابن كثير : عمادالدين ابو الفدا (ت ٧٧٤ هـ)

البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ـ ١٩٣٢ . تفسير القرآن العظيم ، المطبعة التجارية بمصـــر ـ ١٣٥٦ هـ .

ابن المبارك : ابو العباس زين الدين احمد (ا)

التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للامـــام البخاري ، ط ٢ ، دار الارشاد ، بيروت ـ ١٣٨٦هـ .

المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)

التنبيه والاشراف ، دار التراث ، بيروت ـ ١٩٦٨ .

المقدسي : المطهر بن طاهر

كتاب البدء والتاريخ المنسوب لابي زيد البلخي ، تحقيق كلمان هوار ، باريس ـ ١٨٩٩ .

المقريزي : تقي‌الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)

امتاع الاسماع ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ـ ١٩٤١ .

ابن هشام : ابو محمد عبدالملك (ت٢١٨ هـ

تهذيب سيرة بن هشام ، عبدالسلام هارون ، ط ٢ ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ـ ١٩٦٤ .

الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ)

كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، مطبعة جامعة اكسفورد ـ ١٩٦٦ .

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب (ت ٢٩٢ هـ)

تاريخ اليعقوبي ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ، النجف ـ ١٩٦٤ .

ثانياً ـ المراجع :

احمد : ابراهيم خليل

محمد بين التوراة والانجيل والقرآن ، ط ٢ ، مكتبة الوعي العربي ، القاهرة ـ ١٩٦٤ .

بروكلمان : كارل

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس والبعلبكي، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٦٨ .

حميد الله : محمد

مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخـــلافة الراشدة ، ط ٣ ، دار الارشاد ، بيروت ـ ١٩٦٩ .

خطاب : محمود شيت

الرسول القائد ، ط ٢ ، دار مكتبة الحياة ومكتبـــة النهضة ، بغداد ـ ١٩٦٠ .

درمنغم : اميـل

حياة محمد ترجمة عادل زعيتر ، ط٢ ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ـ ١٩٤٩ .

دروزة : محمد عزة

سيرة الرسول (ص) ، ط ٢ ، مطبعة عيسى البابـي القاهرة ـ ١٩٦٥ .

الشريف : احمد ابراهيم

مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص) ، ط ٢ دار الفكر العربي ، القاهرة ـ ١٩٦٥ .

ولفنسون : اسرائيـل

تاريخ اليهود في بلاد العرب ، مطبعة الاعتماد ، القـاهرة ـ ١٩٢٧ .

Margoliouth : The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London ـ 1924.